

الفصل الأول

الوحي ..

- تعريف الوحي وأنواعه ..
- إمكانه .. ووقوعه ..
- المعجزة .. وتعريفها ..
- دفع الشبهات حول وقوع الوحي وحول المعجزات المؤيدة له .

oboi.kandal.com

الوحي

● تعريف الوحي :

أصل الوحي في اللغة : الإعلام في خفاء ، ومن هنا كان له في لسان العرب إطلاقات متعددة ، كلها يدور حول هذا المعنى العام : فيطلق على الإلهام ، والإشارة ، والكتابة ، والرسالة ، والكلام الخفى ، وكل ما ألقىته إلى غيرك^(١) .

وفي إطار هذا المعنى اللغوي الشامل لكل هذه الإطلاقات ، ورد الوحي في أسلوب القرآن الكريم بمعنى الإلهام وذلك في قوله تعالى : « وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون * ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللا »^(٢) .

وورد بمعنى الإشارة في قوله تعالى حكاية عن زكريا عليه السلام : « فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا »^(٣) .
وورد بمعنى الوسوسة في قوله سبحانه : « وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم »^(٤) .

وورد بمعنى إلقاء الله بما يريد إلقاءه للملائكة ، كما في قوله : « إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا »^(٥) .
وورد بمعنى إلقاء الله بالقرآن لنبى محمد ﷺ ، كما في قوله مخاطبا له : « وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيا لتنذر أم القرى ومن حولها »^(٦) .
وورد بمعنى الموحى به كما في قوله تعالى عن القرآن الكريم : « إن هو إلا وحي يوحى »^(٧) .

أما الوحي بالمعنى الشرعى : فتارة يعرفونه بأنه « كلام الله تعالى المنزل على نبي من أنبيائه » . وتارة أخرى يعرفونه بأنه « إعلام الله تعالى لنبى من أنبيائه بحكم شرعى ونحوه »^(٨) وظاهر أن التعريف الأول تعريف للوحي بمعنى الموحى به ، وأن التعريف الثانى تعريف للوحي بمعنى الإيحاء .

(١) انظر لسان العرب في مادة (وحي) . (٢) النحل : ٦٨ ، ٦٩ .

(٣) مريم : ١١ (٤) الأنعام : ١٢١

(٥) الأنفال : ١٢ (٦) الشورى : ٧ (٧) النجم : ٤

(٨) انظر رسالة التوحيد للشيخ محمد عبده ص ٨٣ وهامشها .

وظاهر أيضا أن الوحي بالمعنى الشرعى لا يخرج عن نطاق المعنى اللغوى ، والفرق بينهما هو الفرق بين العام والخاص ، فالوحي بالمعنى اللغوى عام يشمل كل إعلام فى خفاء ، والوحي بالمعنى الشرعى خاص لا يتناول إلا ما كان من الله لنبي من الأنبياء .

● أنواع الوحي :

والوحي أنواع مختلفة :

١ - فمنه ما يكرن مناما ، وذلك بأن يرى النبي ﷺ رؤيا فى منامه ، فتتحقق بعد فى اليقظة كما رآها فى نومه تماما ، ومما يشهد لهذا ما رواه البخارى فى باب بدء الوحي عن عائشة رضى الله عنها قالت : « أول ما بدى به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة فى النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حبيب اليه الخلاء ، وكان يخلو بغار حراء . . » إلى أن قالت : « حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء ، فجاءه الملك فقال : اقرأ . . » إلى آخر الحديث .

وظاهر أن الحديث صريح فى أن هذا النوع من الوحي وقع للنبي محمد ﷺ - كما وقع لغيره من الأنبياء - قبل البعثة ، ولعل السر فى هذا هو تهيئة النبي ﷺ لأعباء الرسالة ، وإعداده لتلقى الوحي فى اليقظة ، ولقد يدل على ذلك حديث علقمة بن قيس صاحب عبد الله بن مسعود ، قال : « إن أول ما يؤتى به الأنبياء فى المنام حتى تهدأ قلوبهم ، ثم ينزل الوحي بعد فى اليقظة » (٩) . وليس فى حديث بدء الوحي ما يدل على عدم وقوع الوحي مناماً بعد البعثة ، بل لقد وقع ذلك بالفعل على سبيل البشرى من الله لنبيه بتحقيق أمل تشوّفت له نفسه ، وتعلق به قلبه ، كما حدث أن رأى فى منامه أنه دخل هو وأصحابه مكة معتمرين ، محلقين رؤوسهم ومقصرين ، ثم تحققت هذه الرؤيا بعد فى اليقظة ، فدخلوا مكة بعد عام من صلح الحديبية معتمرين على هذا النحو الذى أراه الله فى منامه ، ونزل القرآن يحكى هذه الرؤيا وصدقها بقوله : « لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق ، لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون » (١٠) .

٢ - ومنه ما يكون إلهاما يلقيه الله فى قلب نبيه ، فيجد من نفسه علما ضروريا

(٩) انظر ابن حجر فى فتح البارى ج١ ص ١٠ وقال : رواه أبو نعيم فى الدلائل باسناد حسن .

(١٠) البقرة : ١٢٩

بأن هذا من عند الله تعالى ، ولعل هذا هو المقصود بالنفث في الروع الوارد في حديث رسول الله ﷺ : « إن روح القدس نفث في روعي أن نفسا لن تموت حتى تستوفى رزقها ، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب »^(١١) .

٣- ومنه ما يكون تكليفا من الله لنبيه بكلام يسدعه ويدرك معناه ، مع يقينه بأنه كلام الله وليس كلام أحد سواه ، كما كلم الله موسى لما ذهب لميقات ربه الذي ضرب له أجلا أربعين ليلة ، وفي ذلك يقول الله تعالى : « ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرى أنظر إليك ، قال لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني »^(١٢) ويقول في آية أخرى : « وكلم موسى تكليم »^(١٣) .

٤- ومنه ما يكون بواسطة أمين الوحي جبريل عليه السلام ، وهذا أغلب أنواع الوحي لرسولنا محمد ﷺ ولغيره من الرسل ، والقرآن كله من هذا القبيل ، ولم نعرف أن شيئا منه نزل على الرسول ﷺ مناما أو إلهاما أو تكليفا من الله بغير واسطة ، وكل ما عرفناه من ذلك : هو أن رسول الله ﷺ كان - أحيانا - يرى في منامه رؤيا فينزل بعدها قرآن يصدقها ، كما ذكرناه آنفا في رؤيا دخوله مكة ، وكما ورد أنه عليه الصلاة والسلام أغفى إغفاءة رأى فيها نهر الكوثر الذي أعدّه الله له في الجنة ، ولما استيقظ نزل عليه قوله تعالى : « إنا أعطيناك الكوثر .. »^(١٤) إلى آخر السورة ، وقرئ البعض أنها نزلت مناما غير صحيح^(١٥) .

وبما يشهد لنزول القرآن كله بواسطة جبريل ، قوله تعالى في صفة القرآن الكريم : « وإنه لتنزيل رب العالمين * نزل به الروح الأمين * على قلبك لتكون من المنذرين * بلسان عربي مبين »^(١٦) ، وتوله مخاطبا نبيه ﷺ : « قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين »^(١٧) .

* * *

(١١) قال ابن حجر في فتح الباري ج١ ص ٢٢ : أخرجه ابن أبي الدنيا في القناعة ، وصححه الحاكم من طريق ابن مسعود .

(١٢) الأعراف : ١٤٣

(١٤) الكوثر : ١

(١٣) النساء : ١٦٤

(١٥) انظر شرح الفسطاط على صحيح البخاري ج١ ص ٦١ ط : الأسيرية ، وانظر الانقاف في علوم القرآن للسيوطي (النوع الخامس : الفرائض والنوم) ج١ ص ٢٢ - ٢٣ ط : الحلبي .

(١٦) النحل : ١٠٢

(١٧) الشعراء : ١٩٢ - ١٩٥

● كيف كان يتلقى جبريل الوحي عن الله ؟ وكيف كان يتلقاه النبي ﷺ عن جبريل ؟

أما كيف كان يتلقى جبريل الوحي عن الله ؟ فقد قيل : إنه كان يؤمر من قبل الله تعالى بحفظه من اللوح المحفوظ الذي كتب الله فيه كل شيء . وقيل - وهو الأرجح - إنه كان يتلقفه من الله تلقفا روحانيا لا ندرك كنهه ، ثم ينزل به على النبي ﷺ ، ومما يشهد لهذا القول الأخير ما رواه الطبراني من حديث النواس بن سميان مرفوعا إلى النبي ﷺ قال : « إذا تكلم الله بالوحي أخذت السماء رجفة - أي رعدة - شديدة من خوف الله تعالى ، فإذا سمع أهل السماء صعقوا وخرّوا سجدا ، فيكون أولهم يرفع رأسه جبريل ، فيكلمه الله من وحيه بما أراد ، فينتهي به إلى الملائكة ، كلما مرّ بسماء سأله أهلها : ماذا قال ربنا ؟ قال : الحق ، فينتهي به حيث أمره الله من السماء والأرض » (١٨) . ومهما يكن من شيء يقال في هذا الصدد ، فالأمر غيب من غيب الله ، ولسنا مكلفين بمعرفة ما غاب عنا من ذلك ، والجهل به لا يضر ، كما أن العلم به لا ينفع .

وأما كيف كان النبي ﷺ يتلقى الوحي عن جبريل ؟ فقد كان ذلك يجري على طريقتين :

الأولى : أن النبي ﷺ كان ينخلع عن حاله البشرية إلى الحال الملكية ، وذلك بغلبة روحانيته ، حتى يزول التنافر ، ويحصل التلاؤم الذي لا بد منه بين المتكلم والسامع ، وفي هذه الحالة ، إما أن يأتي جبريل النبي ﷺ بالوحي وهو على صورته الملكية فيكلمه وهو يعي عنه ما يقول ، كما حدث ذلك في نزوله عليه أول مرة في غار حراء بقوله تعالى : « اقرأ باسم ربك الذي خلق » إلى قوله : « علم الإنسان ما لم يعلم » (١٩) .

وإما أن يأتيه مستترا ، لا يراه النبي ولا غيره ، ولكن يسمع النبي صوتا أشبه ما يكون بصوت الجرس في شدته وتتابعه ، وقد يسمع الحاضرون حول وجه النبي صلى الله عليه وسلم دويّا كدويّ النحل ، والنبي - دون غيره من الحاضرين - يعي ويفهم ما يسمع ، وقد وقع ذلك له مرارا ، ووردت به أحاديث عديدة .

الثانية : أن النبي ﷺ يبقى على حاله البشرية ، وجبريل هو الذي ينخلع من الصورة الملكية إلى الصورة البشرية ، فينزل على النبي ﷺ في صورة إنسان يراه

(١٨) شرح القسطلاني على صحيح البخاري ج ١ ص ٥٨ ط : الأميرية .

(١٩) العلق : ١ - ٥

ويراه أصحابه ، ويكلمه كلاما معتادا لا يخرج عن كلام الناس فيما بينهم ، والرسول ﷺ والصحابة يسمعون ذلك الكلام ويفهمونه ، إلا أن النبي ﷺ يدرك من أول وهلة أنه جبريل ، والصحابة لا يدركون ذلك إلا بعد تنبيه الرسول ﷺ لهم ، وقد وقع ذلك مرارا وجاءت به أحاديث ، منها : حديث عمر رضى الله عنه قال : « بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد ، حتى جلس إلى النبي ﷺ ، فأسند ركبته إلى ركبته ، ووضع كفيه على فخذيه ، وقال : يا محمد أخبرني عن الاسلام » الحديث ، وفي آخره أن الرسول ﷺ قال لعمر : أتدرى من السائل ؟ فقال عمر : الله ورسوله أعلم ، فقال رسول الله ﷺ : فإنه جبريل جاء يعلمكم دينكم (٢٠) .

ومما هو معروف عقلا ونقلا أن الحالة الأولى أشد الحالتين على رسول الله ﷺ : أما من ناحية العقل ، فإن انخلاع النبي ﷺ عن حالة البشرية إلى الحال الملكية ليس بالأمر السهل ، لأنه خروج عن طبيعته التي خلقه الله عليها ، ثم إن الفهم من كلام يشبه صلصلة الجرس ليس سهلا كالفهم من الكلام الذى ألفه الناس عند مخاطبتهم .

وأما من ناحية النقل فقد روت السيدة عائشة رضى الله عنها : أن الحارث ابن هشام رضى الله عنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله . . كيف يأتيك الوحي ؟

فقال رسول الله ﷺ : « أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس - وهو أشده على - فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال ، وأحيانا يتمثل لى الملك رجلا فيكلمنى فأعنى ما يقول » . قالت عائشة : ولقد رأيته ينزل عليه الوحي فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقا . (٢١)

قال الحافظ ابن حجر فى تعليل قوله فى الحديث « وهو أشده على » : « لأن لفهم من كلام مثل الصلصلة أشكل من الفهم من كلام الرجل بالتخاطب المعهود ، والحكمة فيه أن العادة جرت بالمناسبة بين القائل والسماع ، وهى هنا

(٢٠) رواه مسلم فى كتاب الايمان .

(٢١) رواه البخارى فى باب بدء الوحي . ومما يشهد لشدة الوحي فى الحالة الأولى أيضا ما رواه الامام أحمد عن عبدالله بن عمر قال : سألت النبي صلى الله عليه وسلم : هل تحس بالوحي ؟ فقال : « أسمع صلاصل ، ثم أسكت عند ذلك ، فما من مرة يوحى الى الاظننت أن نفسى تقبض » الاتقان ج ١ ص ٤٤ .

إما باتصاف السامع بوصف القائل بغلبة الروحانية ، وهو النوع الأول ، وإما باتصاف القائل بوصف السامع ، وهو البشرية ، وهو النوع الثاني « (٢٢) .
 وبعد ، فمما يجب أن يعلم : أن الوحي بالنسبة للأنبياء جميعا واحد لا يختلف في شيء مطلقا ، فهو واحد في حقيقته ، واحد في مصدره ، واحد في هدفه ومقصده ، مصداق ذلك قوله تعالى : « إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده ، وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان ، وآتينا داوود زبوراً * ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك ، وكلم الله موسى تكليماً » (٢٣) .

ومما يجب أن يعلم أيضا : أن الوحي لكل الأنبياء لا يخرج عن أنواعه التي ذكرناها والتي جمعها الله في قوله : « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء ، إنه على حكيم » (٢٤)

* * *

(٢٣) النساء : ١٦٣ ، ١٦٤

(٢٢) فتح الباري ج ١ ص ٢٣ .

(٢٤) يقول بعض العلماء إن كلام الله لموسى من غير واسطة كان خصوصية له ولم يشاركه فيها أحد من الأنبياء ، ورد عليه بأن نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم كلمه ربه ليلة المعراج من غير واسطة . أما كيفية هذا الكلام فغيب لا نعرفه ، وكل ما يلزمنا معرفته : أنه ليس ككلامنا : من حروف وأصوات ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . والآية من سورة الشورى : ٥١

إمكان الوحي ووقوعه

الناس أمام إمكان الوحي ووقوعه بالفعل طوائف ثلاث :

الطائفة الأولى : أصحاب الديانات السماوية الذين آمنوا بها ، وأدعوا لها ، وهؤلاء مؤمنون بالوحي وإمكانه ووقوعه ، لأن ذلك الإيمان منهم نتيجة حتمية لإيمانهم برسولهم ، وتصديقهم لهم في كل ما يبلغون به عن الله ، إذ الوحي - في أى صورة من صور - هو الوسيلة الوحيدة لتلقى الرسالات عن الله سبحانه .

هذه الطائفة لا كلام لنا معها في إمكان الوحي ووقوعه ، لأنها متفقة معنا في هذه القضية ، فإن كان هناك بعد ذلك إنكار من بعض أتباع الرسالات لرسالة ما غير رسالتهم ، فذلك ليس إنكاراً لإمكان الوحي في ذاته ولا لوقوعه ، وإنما هو إنكار لأن يكون فلان (من الأنبياء) نبياً يوحى إليه من قبل الله ، وذلك يحتاج إلى إقامة الدليل على نبوته ، وإثبات النبوة لنبي ما ، شيء خارج عن موضوعنا الذى نتكلم فيه .

الطائفة الثانية : جماعة من الفلاسفة الغربيين (في الفترة من أوائل القرن السادس عشر الى قريب من منتصف القرن التاسع عشر) ذهبوا - بدافع من المادية المشككة في كل ما سواها - « إلى أن مسألة الوحي من بقايا الخرافات القديمة ، وتغالت حتى أنكرت الخالق والروح معا ، وعلمت ما ورد من الوحي في الكتب القديمة بأنه : إما اختلاق من المتنبئة أنفسهم ، لجذب الناس اليهم وتسخيرهم لمشيتهم ، وأما هذيان مرضى يعترى بعض العصبيين فيخيل اليهم أنهم يرون أشباحا تكلمهم ، وهم لا يرون في الواقع شيئا » (٢٥) .

وظاهر أن هذه الطائفة تنكر الوحي لأنها تنكر وجود الله ووجود الروح ، فهي تحتاج الى اثبات كلا الأمرين أولاً ، ثم نرد عليها بعد ذلك دعوى اختلاق الأنبياء أو هذيانهم ، فنقول :

أما عن وجود الله - سبحانه - فالأدلة عليه قائمة ، نقرؤها في كتاب الكون المفتوح دائماً أمام أبصارنا وبصائرنا ، ونقرؤها بعد منطفاً سليماً فيما قرره علماء الكلام في مباحث الألوهية .

(٢٥) دائرة معارف وجدي في مادة (وحي) ج ١٠ ص ٧١٢ - ٧١٣ .

وأما عن وجود الروح ، فقد ثبت ذلك ثبوتاً علمياً تجريبياً لا شك فيه ، كما
سترى ذلك بعد قليل وعند الكلام عن الطائفة الثالثة .
وإذاً فلا يبقى بعد ذلك إلا اقناع هؤلاء بإمكان اتصال الروح - وهو الملك -
بالنبي الموحى اليه ليبلغه عن الله ما يريد ، وهذا ما سنبهرن عليه عند الكلام
عن الطائفة الثالثة .

أما قولهم : ان دعوى الوحي اختلاق من المتنبئة ، أو هذيان مرضى يعترى
بعض العصبيين فيخيل اليهم أنهم يرون أشباحاً تكلمهم وهم لا يرون في
الواقع شيئاً ، فذلك اتهام قديم ، رُمى به المكابرون المعاندون رسلهم من
قبل ، وهو اتهام باطل من أساسه ، فالمعجزات التي أظهرها الله على أيدي
رسله ، واقتترنت بالتحدى ، وانتهت الى العجز التام عن معارضتها بمثلهما ،
دليل صدقهم في كل ما يبلغون به عن الله . وما عرف من سيرة الأنبياء من
أنهم جميعاً كانوا بين أقوامهم في الذروة عقلاً وكمالاً ، وأن الله أصلح بهم أمماً
كانت في الذروة انحرافاً وضلالاً ، يدل - بيقين - على أنهم كانوا أبعد الناس
عن الهذيان والخيال . وسوف نعرض لهذه النقطة بمزيد من الايضاح عند
الكلام عن المعجزة .

الطائفة الثالثة : جماعة من العلماء والفلاسفة الغربيين ظهرت في منتصف
القرن التاسع عشر ، آمنت بالأرواح وبما لها من قدرات وتصرفات فوق ما
نتصور ، وبأن هذه الأرواح يمكن استحضارها ، والتحدث اليها ، وتسخيرها
في بعض الأمور ، حتى انها لتستل عن الخفيات فتظهرها ، وعن بعض
المغيبات فتكشف عنها ، ويذكر المرحوم الأستاذ محمد فريد وجدى في دائرة
المعارف - بعد ما تحدث عن ظهور هذه الطائفة المؤمنة إيماناً مطلقاً بعالم
الأرواح ، والتي بعثت في قضية الوحي - كما يقول - الحياة بعد أن كانت في
عداد الأضاليل القديمة - يذكر أن لفيفاً من أساتذة الجامعات في الدول الغربية
ألقوا في سنة ١٨٨٢ جمعية دعيت باسم « جمعية المباحث النفسية » كان الغرض
منها : « البت في المسألة الروحية ، وتحقيق حوادثها بأسلوب النقد الصارم ،
والحكم بقبولها نهائياً في العلم إن كانت حقيقة ، أو تقرير ابعادها عن العلم
والفلسفة إن كانت من الأمور الوهمية » (٢٦) .

ويذكر - بعد ذلك - : « ان هذه الجمعية مكثت نحو ثلاثين سنة ، حفصت
في خلالها ألوفاً من الحوادث الروحية ، وعملت من التجارب في النفس وقواها

(٢٦) دائرة المعارف لمحمد فريد وجدى مادة (وحي) ج ١٠ ص ٧١٣

ما لا يكاد يدرك لولا أنه مدون في محاضر تلك الجمعية في نحو أربعين مجلدا ضخما ، فكان من ثمرات جهادها اثبات شخصية ثانية للإنسان ، أى أننا أحياء مدركون في حياتنا الحاضرة لا بكل قوى الروح التى فىنا ، بل بجزء من تلك القوى ، سمحت لنا به حواسنا الخمس القاصرة ، ولكن لنا فوق ما تعطيه لنا حواسنا هذه حياة أرقى من هذه الحياة ، لا تظهر بشيء من جلالها إلا اذا تعطلت فىنا هذه الشخصية العادية بالنوم العادى ، أو النوم الصناعى (المغناطيسى) وقد جربوا ذلك على المتوهمين نوماً مغناطيسيا ، فوجدوا : أن النائم يظهر بمظهر من الحياة الروحية لا يكون له وهو يقظان : فيعلم الغيب ، ويخبر عن البعدين ، ويصر ويسمع ، ويحس بغير حواسه الجسمية ، ويكون - وهو فى تلك الحالة - على جانب كبير من التعقل والادراك . قالوا : « وتكون هذه حالة الإنسان فى نومه العادى ، والدليل على ذلك ما يأتىه المصابون بمرض الانتقال النومي من الأفعال المعجزة والمدارك السامية » (٢٧) .

قالوا : « وهذه الشخصية الباطنة أصبحت مدركة بالحس ، فان ظهور النائم نوماً مغناطيسيا بهذا المظهر من العقل الراجح ، والفكر الثاقب ، والنظر البعيد ، وسريانه فى سرائر النفوس ، واكتشافه لحفايا الأمور ، وجولاته فى الأقطار البعيدة ، بينما يكون جاهلا غيبا فى حالته العادية ، أدل دليل على أن للإنسان شخصية تحجبها هذه الحياة الجسدية ، ولا تظهر الا اذا وقع جسمه فى نوم طبيعى أو صناعى . ثم إن الرؤى الصحيحة التى تقع كفلق الصبح ، ويدرك بها الإنسان أمورا غيبية ، أو يحل فيها مسائل عويصة لم يحلها وهو صاح ، أو انتقاله وهو نائم واتيانه أعمالا لا يستطيع عملها وهو يقظ ، يدل كذلك على أن له شخصية باطنة أرقى من شخصيته العادية » (٢٨) .

ثم ذكر الأستاذ محمد فريد وجدى بعد ذلك : أن هناك أمورا تدل بالحس على وجود تلك الشخصية. درستها تلك الجمعية درسا مدققا ، وحققت تجارب من درسها قبلها . . وذكر من أمثلة ذلك عبقرية الحاسبين على البدية لأعوص المسائل الرياضية التى تحتاج الى زمن كبير فى التفكير والعمل ، فيجيبون عليها على الفور وهم لا يدركون كيف وجد هذا الحل فى نفوسهم ، وحديث أحد الشعراء الغربيين عن نفسه : أنه كان ينام - غالبا - وهو يعمل قطعة من الشعر لم تتم فيستيقظ فيجدها تامة فى اليوم التالى عندما يفكر فيها . . وذكر غير ذلك

(٢٧) دائرة المعارف لمحمد فريد وجدى - مادة (وحى) ج١٠ ص ٧١٤ .

(٢٨) المرجع السابق ج١٠ ص ٧١٤ - ٧١٥ .

من الوقائع المشابهة التي لا تصدر إلا عن الشخصية الباطنية الملهمة .
غير أن هؤلاء الذين آمنوا بوجود الروح وخلودها وما لها من قوة الادراك
والإلهام والتأثير ، لا يرون : « أن الوحي يكون بنزول ملك من السماء على
الرسول فيبلغه كلاما عن الله ، بل يكون في تجلّ روح الانسان عليه بواسطة
شخصيته الباطنية ، فتعلمه ما لم يكن يعلم ، وتهديه الى خير الطرق لهداية
نفسه ، وترقية أمته » (٢٩) .

وخلاصة ما انتهت اليه هذه الطائفة الثالثة هو :

- ١ - أنهم يؤمنون بوجود الأرواح . . . وهذا نسلم به ولا ننكره .
- ٢ - وأنهم يؤمنون بأن لها ادراكا واسعا ، وقدرة فائقة ، وتأثيرا بليغا . . . وهذا
أيضا - نسلم به ولا ننكره (٣٠) .
- ٣ - وأن هذه الروح هي التي تنفث في روع الأنبياء ما يعتبرونه وحيا من الله ،
وأنها قد تظهر لهم متجسدة فيحسبونها من ملائكة الله التي تهبط عليهم من
السماء وهذا ما لا نوافقهم عليه ، ولا نسلم ضم به .
ذلك لأنهم علموا انكارهم للموحى بطريق الملك : « بأن الله منزّه عن
المكان ، وأن الملائكة - مهما قيل في روحانيتهم وتجردهم عن المادة - لا يعقل
أنهم يقابلون الله ويسمعون منه كلاما ، لأن هذا كله يقتضى التحيز وعدم
التنزيه المطلق ، ولأن الملائكة مهما ارتقوا فلا يكونون أعلا من الروح الانساني
التي هي من روح الله نفسه ، فمثلهم ومثلها سواء » (٣١) .
وهذا وهم باطل ، فالله - حقا - منزّه عن المكان كما يقولون . والملائكة -
حقا - لا يقابلون الله كما يقولون ، ونحن حين نقول : بأن الوحي يكون عن
طريق الملك ، لا ندعى أن الملك يقابل الله سبحانه ، لأن هذا يستدعي أن
يكون الله - جل شأنه - في مكان ، وهذا يقتضى التحيز الذي لا يقول به مؤمن
بالله وصفاته .

وكل ما نقوله هو : أن الملك - بدون مقابلة ولا مواجهة - يتلقى الوحي عن
الله - تعالى - تلقيا روحانيا لا ندرك كنهه ، ثم ينزل به على النبي ﷺ فيبلغه
اليه على صورة من الصور التي ذكرنا من قبل ، وهذا كله اتصال روحي لا
ينكره من يؤمن بعالم الروح .

(٢٩) دائرة معارف وجدي مادة (وحي) ج ١٠ ص ٧١٩

(٣٠) ران كنت لا أزال في شك من أن الانسان يستطيع أن يسيطر على الروح ويسخرها في أغراضه
وحاجاته ، وبخاصة الأرواح العالية كأرواح الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

(٣١) دائرة معارف وجدي - مادة (وحي) ج ١٠ ص ٧١٩ - ٧٢٠ .

وأما قولهم : « ان الملائكة مهما ارتقوا فلا يكونون أعلا من الروح الانساني التي هي من روح الله نفسه ، فمثلهم ومثلها سواء » يريدون من وراء ذلك أن يقولوا : ان الملائكة ليسوا أهلا لأن يكونوا أو يكون أحدهم وسيطا بين الله والأنبياء ، لأن روحانية الملائكة دون روحانية الأنبياء التي هي من روح الله ، قولهم هذا لا نسلّمه لهم أيضا ، لأن دعوى أن الروح الانساني من روح الله ، وأنها في ذلك سواء ، دعوى تستلزم الجزئية ان أرادوا أنها بعض منها ، وتستلزم المشابهة ان أرادوا أنها من جنسها ، وهذا لا يتفق مع ما ثبت بالأدلة القاطعة من وحدانية الله في ذاته وصفاته « قل هو الله أحد * الله الصمد * لم يلد ولم يولد * ولم يكن له كفواً أحد » .

نعم ، ان الروح الانساني من روح الله ، على معنى أنها من روحه التي خلقها وأودعها كل كائن حي ، وعلى هذا نفهم قول الله عز وجل في شأن آدم عليه السلام : « فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين » (٣٢) .

وعلى هذا المعنى ، فالروح الانساني - ومنها أرواح الأنبياء - والروح الملائكي - ومنها روح جبريل حامل الوحي - سواء ، اذ الكل من خلق الله عز وجل .

على أن روح الملائكة - قطعاً - أعلا وأشرف من روح الأنبياء ، لأن الملائكة أرواح مجردة عن المادة ، والأنبياء بشر من جسم وروح ، والروح المجردة أقوى - بلا شك - من الروح التي تلبس الجسم وتخالطه .
نعم ، قد يكون مقام الأنبياء عند الله أفضل من مقام الملائكة ، وذلك لا يرجع الى تفاضل بينهما في الأرواح ، وإنما يرجع الى شيء آخر وراء ذلك .

● دليل إمكان الوحي :

. مما تقدم يتبين لنا : أن الوحي للأنبياء بواسطة الملك - وهو جبريل عليه السلام - ليس بالأمر المستحيل ، لأنه لا يعدو أن يكون اتصالاً بين الله والملك اتصالاً روحانياً ، ثم بين الملك والنبي اتصالاً روحانياً أيضاً ، واتصال بعض الأرواح ببعضها الآخر ، وتأثير الأقوى منها في الأذن أصح - وعلى الأخص عند الباحثين في الروح - أمراً مسلماً ، لا ينكره إلا من سفه نفسه ،

وأنكر عقله ، وأغمض بصره عما أجرى ولا يزال يجرى من تجارب تنتهى حتماً - إذا أخذت طريقها الصحيح - الى هذه الحقيقة التى نقول بها ، وهى أن الوحي أمر ممكن وغير مستحيل .

ولقد انتهى العالم النفسى الدكتور « ميرس » الذى كان يعمل أستاذا لعلم النفس فى جامعة كمبردج فى كتابه « الشخصية الانسانية » بعد ما تناول فى كتابه هذا موضوع العبقريّة ، والوحي ، والشخصية الباطنية ، وذكر من عجائب الالهام طرائف كثيرة . . انتهى الى التسليم بأن الوحي حقيقة ممكنة ، فقال : « أنا أؤكد إذن وجود روح فى الانسان تستمد قوتها وجمالها من عالم روحانى ، وأؤكد - أيضا - وجود روح عامة فى العالم يمكن أن تتصل بها الروح الانسانية ولها بها علاقة » (٣٣) .

ويبدو أنه لا يريد من الروح العامة الا الله سبحانه ، والروح الانسانية يمكن أن تتصل به بطريق ما . . . بواسطة أو بغير واسطة ، وهذا ما يقوله ويؤكدّه علماء المسلمين .

* * *

● دليل وقوع الوحي فعلا للأنبياء :

بقى بعد ذلك أن نقيم الدليل على أن الوحي وقع فعلا للأنبياء فنقول : ان الدليل على وقوع الوحي للأنبياء بالفعل دليل منطقي سليم ، وهو : أن الوحي ممكن أخبر بوقوعه الصادق المعصوم - وهو الرسول ، أى رسول كان - وكل ممكن أخبر بوقوعه الصادق المعصوم فهو واقع فعلا وبقينا ، إذن فالوحي واقع فعلا وبقينا للأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

هذا دليل منطقي ، يجرى على أسلوب من أساليب المناطقة فى استدلالهم وهو لا يحتاج فى صدق نتيجته التى قررناها إلا الى صدق مقدماته التى بنينا عليها هذه النتيجة ، وهى كلها صادقة كما نوضحه .

أما أن الوحي ممكن ، فذلك ما أقمنا عليه الدليل آنفا .
وأما أنه أخبر بوقوعه الصادق المعصوم ، فذلك - أى الإخبار - أمر مسلم لا ينكره أحد ممن عاصروا الأنبياء وسمعوا منهم أنهم أنبياء يوحى اليهم ، ولا ينكره من جاءوا بعد عصر النبوة لثبوته بالتواتر الذى توارثه جيل عن جيل ، فضلا عن وروده فى الكتب المقدسة التى لا يرقى اليها الشك .

وأما أن المخبر بالوقوع - وهو الرسول - صادق معصوم ، فذلك ثابت بيقين ، لأنه ما من رسول بعثه الله فى أمة من الأمم الا وكان له من قومه

مكذبون ، وما كان الله ليذر أنبياءه يواجهون هذا التكذيب بغير حجة دامغة ، فأيدهم بالمعجزات الدالة على صدقهم وعصمتهم من الكذب ، والتي تقوم - كما يقول علماء الكلام - مقام قول الله عز وجل : « صدق عبدى فى كل ما يبلغ عنى » .

وأما أن كل ما أخبر بوقوعه الصادق المعصوم فهو حق ، فذلك أمر بدهى وحتمى ، لأن ذلك هو قضية العصمة التى ثبتت للأنبياء بظهور المعجزات على أيديهم .

● المعجزة :

وإذا كان الدليل على وقوع الوحي قد ساقنا الى ذكر المعجزة ، فإن من الواجب علينا - اتقانا للفائدة ، وتوضيحاً لبعض قضايا الدليل - أن نعرض للكلام عن المعجزة من بعض جوانبها المتعددة فنقول :

تعريفها : المعجزة - فى أصل معناها اللغوى - مشتقة من العجز ، وهو عدم القدرة على أمر من الأمور .

ويطلقها علماء الشريعة على الأمر الخارق للعادة الذى يظهره الله تعالى على يد نبي مرسل ، لتقوم دليلاً على صدق دعوته ، وبرهانا على حقيقة رسالته . ولقد جرت سنة الله - سبحانه - أن يؤيد كل رسول من رسله بمعجزة خارقة للعادة ، وخارجة عن حدود المؤلف للناس ، حتى يحمل المعاندين المكابرين على الايمان بهم ، والاذعان لهم ، والتسليم بكل ما جاءوا به من هداية وارشاد .

كان النبي يبعث فى قومه فيصدع بالدعوة الى الله ، فيستجيب له من شرح الله صدره لدعوته ، ويكذب به من جعلوا أصابعهم فى آذانهم حتى لا يسمعوا صيحة السماء التى تنادى عليهم : أن هبوا من رقدتكم ، وأفيقوا من غفلتكم ، وتحرروا من قيود شهواتكم وأهوائكم . . .

ويتمادى المكذبون فى المكابرة والعناد ، فاذا بهم يرمون أنبياءهم - بعد الكذب - بالسحر تارة ، وبالجنون أخرى : فيقول المكذبون لنوح عليه السلام : « ما نراك إلا بشراً مثلاً وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين » (٣٤) .

ويقولون لهود عليه السلام : « يا هود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين * إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء » (٣٥) .

ويقولون لصالح عليه السلام : « إنما أنت من المسحرين * ما أنت إلا بشر مثلنا فأت بآية إن كنت من الصادقين » (٣٦) .

ويقولون عن موسى وهارون : « إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاك من أرضك بسحرهما فيذهبا بطريقتكم المثلى » (٣٧) .

ويقولون عن محمد ﷺ : « معلم مجنون » (٣٨) . ويقولون عنه أيضا : « أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون » (٣٩) .

قالوا كل هذا وأكثر منه في الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وطالبوهم بالآيات الدالات على صدق رسالاتهم ، فما كان من الأنبياء إلا أن جأوا الى الله سبحانه ، يطلبون منه أن يزيدهم بالآيات من عنده ، فاستجاب لهم ربهم ، وأظهر على أيديهم من المعجزات ما يشهد بصدق دعوتهم ، وتحدى الأنبياء أقوامهم أن يأتوا بمثل ما أتى الله به على أيديهم من خوارق العادات ، فعجزوا كل العجز ، وكان نتيجة ذلك أن آمن بهم العقلاء ، واستمر متشبثا بالكفر الحمقى من الجهلاء والسفهاء !! . . .

وشاءت حكمة الله - تعالى - أن تكون معجزة كل نبي من جنس ما برع فيه قومه ، لتكون أبلغ في التحدى ، وليكون العجز عن معارضتها أبلغ في الدلالة على كونها آية من عند الله على صدق من ظهرت على يده من الأنبياء . فمثلا : بعث الله موسى عليه السلام الى قوم برعوا في السحر ، فأعطاه الله معجزة من هذا القبيل ولم تكن سحرا ، وإنما كانت حقا أبطل الله به مخاريق سحرة فرعون .

ويصور القرآن الكريم لنا موقف التحدى الذى كان بين موسى والسحرة أبلغ تصوير بقوله : « فجمع السحرة لميقات يوم معلوم * وقيل للناس هل أنتم مجتمعون * لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالين * فلما جاء السحرة قالوا لفرعون أئن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالين * قال نعم وإنكم إذا لمن

(٣٦) الشعراء : ١٥٣ ، ١٥٤

(٣٨) الدخان : ١٤

(٣٥) هود : ٥٣ ، ٥٤

(٣٧) طه : ٦٣

(٣٩) الصافات : ٣٦

المقربين * قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون * فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون انا لنحن الغالبون * فألقى موسى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون * فألقى السحرة ساجدين * قالوا آمنا برب العالمين * رب موسى وهارون «(٤٠)» .

وبعث الله عيسى الى قوم برعوا في الطب ، فجاءهم على صدق دعواه بمعجزة من هذا القبيل ، ولكنها أبلغ مما يعرفون وفوق ما يتصورون ، فقد كان - عليه السلام - يرى الأكمة^(٤١) والأبرص باذن الله ، وما عرف الطب لشيء من ذلك علاجا ، وكان يحيى الموتى باذن الله ، وما عرفنا ولن نعرف يوما أن طبيا يمكنه إعادة الحياة للإنسان بعد موت محقق^(٤٢) .

ويصرح القرآن بمعجزة عيسى - عليه السلام - فيقول عنه : « ورسولا الى بنى اسرائيل أنى قد جئكم بآية من ربكم ، أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا باذن الله ، وأبرئ الأكمة والأبرص وأحيى الموتى باذن الله ، وأنبئكم بما تاكلون وما تدخرون في بيوتكم ، إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين »^(٤٣) .

وبعث الله محمدا عليه الصلاة والسلام بمعجزة القرآن الكريم - وهى كبرى معجزاته - من نوع ما برع فيه قومه وهم العرب ، وتحداهم به فعجزوا أن يعارضوه حتى فى أقصر سورة منه ، مع توفر ذرايعهم لمعارضته ، وعدم المانع لهم منها فقد كانوا فرسان البلاغة وأمرأ البيان ، وكان القرآن - وما زال - فوق متناول ألسنتهم وبيانهم ، وصدق الله العظيم : « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً »^(٤٤) .

قلنا : ان معجزات الأنبياء كانت من نوع ما برع فيه أقوامهم الذين بعثوا فيهم لتكون أبلغ فى التحدى ، وليكون العجز عنها أبلغ فى كونها آية من عند الله على صدق نبواتهم ، ونوضح ذلك فنقول .

(٤٠) الشعراء : ٣٨ - ٤٨ (٤١) الأكمة : من ولد اعمى

(٤٢) وانما قلنا بعد موت محقق ، لأن بعض الصحف والمجلات كثيرا ما تنشر عن بعض الأطباء أنهم أعادوا الحياة لبعض من فارقوا الحياة بعد لحظات أو ساعات من وفاتهم ، وهذا وهم منهم . والحقيقة : أن المريض لم يموت ، وانما هبط قلبه ، واختفى نبضه بحيث لا يكاد يحس ، ويدخل المريض فى غيبوبة شديدة فيظن أنه مات ، ويأخذ الطبيب فى علاجه بتدليك القلب أو نحو ذلك ، فإذا بقلب المريض تظهر فيه الحركة ، وإذا بنبضه يسمع بعد ما كان خفيا ، فيقول من يجهل ذلك : ان الطبيب أعاد الحياة لميت ، وربما يدعى الطبيب ذلك للاعلان عن نفسه .

(٤٣) آل عمران : ٤٩ (٤٤) الاسراء : ٨٨

ان كل رسول بعثه الله الى قومه ، وجدهم يقيمون على شرك تمكن من قلوبهم ، وعادات مرذولة تحكمت في سلوكهم ، فسفّه أجلامهم ، وأبطل آلهتهم ، وعاب سلوكهم ، ودعاهم الى عبادة الله وحده ، ونبذ معتقداتهم الفاسدة وعاداتهم السيئة ، فوقفوا منه موقف المعادى الشرس ، فتصدى لهم بالحجة والمنطق فما استجابوا لدعوته ، فجاءهم بالمعجزة وتحداهم جميعا أن يأتوا بمثلها ان استطاعوا ، وإلا فليسلموا له بالنبوة ، فما كان منهم إلا محاولات ضاعت كلها هباء أمام معجزاتهم التي أيدهم الله بها ، وثبت عجزهم عن معارضتها وهم من عرفوا بالبراعة في هذا الفن الذي تحداهم الرسول بلون منه عجيب ، وكان عجزهم هذا في وقت توفرت فيه الدواعى للمعارضة حتى يدفعوا البطلان عن آلهتهم ، ويدفعوا السفاهة والجهالة عن أنفسهم ، ويمكّنوا لعقائدهم وعاداتهم في الأرض بعد أن أصبحت كلها في مهب ريح الحق المدمرة للباطل .

ولا شك أنهم تداعوا لقبول هذا التحدى ، وتآزرروا جميعا على أن يخرجوا من هذه المحنة ظافرين منتصرين ، فاذا بمحاولاتهم كلها غثاء كثفاء السيل أمام تيار الحق الإلهى الذى جرفها فذهبت بددا ، وضاعت سدى « فأما الزيد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض »^(٤٥) .

أليس معنى هذا العجز الجماعى لأمة من الأمم أمام تحدى فرد واحد منها ، مع عدم المانع من المعارضة وتوفر الدوافع اليها - كما قلنا - أكبر دليل على أنه صادق في دعوى النبوة ؟

بلى ، انه لأكبر دليل على صدقه ، ولكن رغم ذلك تمادى المبطلون في باطلهم ، وأخذوا يثيرون حول وقوع الوحي وحول المعجزات التى هى دلائل وقوعه للأنبياء شكوكا وأوهاما ليصلوا من وراء ذلك الى القول ببطلان الرسالات السماوية كلها ، ثم لعلهم يظفرون بعد ذلك بتشكيك مؤمن وفتنة مهتد !! ...

* * *

الشبهات التى أثّرت حول وقوع الوحي وحول المعجزات المؤيدة له ، وردّها

نرى لزّما علينا أن نعرض لبعض هذه الشبه ، ثم نعقب على كل منها بما يكشف عن زيفها ، ويفصح عن بطلانها فنقول :

● الشبهة الأولى : قالوا مشككين فى امكان الوحي ووقوعه للأنبياء عليهم السلام : لو كان الوحي ممكنا لأوحى الله الى جميع البشر ولم يخص به نفرا قليلا منهم ليكونوا وسطاء بينه وبين خلقه ، لأن تعميم الوحي بحيث يشمل كل المكلفين أدعى الى تحقيق الغرض منه ، وهو هداية الناس الى الحق وإلى ما فيه خير الدنيا وسعادة الآخرة .

ثم هو بعد ذلك أنفى لتكذيب الأنبياء ورميهم بما يرمون به من الخداع والسحر والجنون . . وغير ذلك من التهم التى وجهت ولا زالت توجه اليهم من المنكرين عليهم دعوى الرسالة .

والجواب عن هذه الشبهة : أن هذا الذى يهذى به المشككون المضللون ، لا يصدر الا عن جهل بحكمة الله العلى الحكيم ، ثم عن جهل بطباع الناس واختلاف ما لديهم من صلاحية واستعداد للاضطلاع بمهام الامور وعظائمها : أما أنه صادر عن جهل بحكمة الله ، فذلك لأن الله جلت حكمته - أراد للناس أن يكونوا مختلفين ، لا أن يكونوا أمة واحدة ، تساق الى الحق سوقا ، وتحمل عليه حملا ، بالوحي لكل منهم أو بأى وسيلة ملجئة ، اذ الانسان مخلوق ميزه الله بالعقل ، وألزمه بتكاليف مختلفة ، ومنحه حرية الاختيار لنفسه ، ووعدّه على اختياره ثوابا أو عقابا ، فلو حمل على الحق حملا بالوحي أو بأمر آخر لخرج عن كونه انسانا نيط به التكليف ، ولأصبح أشبه شئ بالحيوان الذى يقاد بالزمام ، أو لعد فى زمرة الملائكة الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

وحقيقة الانسان وطبيعة تكوينه وما أراده الله له فى حياته الدنيا من خلافته فى الأرض وعمارة الكون ، تأبى أن يكون كل أفراده أنبياء يوحى اليهم ، وسنة الله فى كونه تأبى ذلك أيضا والله العليم بخلقهم ومصالح عباده يقول : « ولو

شئنا لآتيناً كل نفس هداها ولكن حق القول منى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين»^(٤٦) ويقول : « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ، ولا يزالون مختلفين * الا من رحم ربك ، ولذلك خلقهم ، وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين »^(٤٧) .

وأما أنه صادر عن جهل بطباع الناس واختلاف ما لديهم من صلاحية واستعداد للاضطلاع بجلال الأمور وعظائمها ، فذلك لأن الله - سبحانه - لم يخلق الناس كلهم على نمط واحد من العقل ، والفهم ، والادراك ، وصفاء الروح ، والقدرة على تحمل الأعباء ، وإنما خلقهم متفاوتين في ذلك كله : فمنهم الغبي ومنهم الذكي ، ومنهم الضعيف ومنهم القوي ، ومنهم من صفت روحانيته ، ومنهم من غلبت عليه ماديته ، وما يصلح له القوى الذكي لا يصلح له الضعيف الغبي ، وما يمكن أن يدركه صاحب الشفافية الروحية لا يمكن أن يدركه صاحب الحجب المادية ، والله الذي قسم الحظوظ بين عباده ، اختار من بين بني الانسان أفراداً صنعهم على عينه ، ورباهم على رعاية منه وعناية ، وأعدهم اعداداً خاصاً ليكونوا مهبط وحيه وحمله رسالاته ، « الله يصطفى من الملائكة رسلاً ومن الناس »^(٤٨) . وقدما قال الكفار : « لن نؤمن حتى نؤق مثل ما أوق رسل الله »^(٤٩) فرد الله عليهم بقوله : « الله أعلم حيث يجعل رسالته »^(٥٠) .

نعم : الله أعلم بمن يصلح لهذه المهمة ومن لا يصلح ، فكيف يقال بعد ذلك : لو كان الوحي ممكناً لأوحى الله الى الناس كافة ؟ !! .

● الشبهة الثانية : قالوا مشككين في معجزات الأنبياء التي هي دلائل نبوتهم وآية صدقهم فيما يدعون من وحى السماء : ان المعجزات خروج على النظام الطبيعي العام ، وخرق لناموس الكون وقوانين الحياة ، وذلك ما لا يكون أبداً ، لأن الخروج عن ناموس الكون يتخلف الآثار عن مؤثراتها ، وتحقق النتائج في الوجود بدون مقدماتها - كما هو الشأن في المعجزات - معناه قطع لما بين جوانب الكائنات من ترابط وتماسك ، وذلك يؤدي الى الخلل والفساد الذي يتنافى مع الحكمة والمصلحة .

(٤٧) هود : ١١٨ ، ١١٩

(٤٨) الأنعام : ١٢٤

(٤٦) السجدة : ١٣

(٤٨) الحج : ٧٥

(٥٠) الأنعام : ١٢٤

والجواب عن هذه الشبهة : هو : « ان المعجزة ليست من نوع المستحيل عقلا ، فان مخالفة السير الطبيعي المعروف في الابداع مما لم يقم دليل على استحالة ، بل ذلك مما يقع ، كما يشاهد في حال المريض يمتنع عن الأكل مدة لو لم يأكل فيها وهو صحيح المات ، مع وجود العلة التي تزيد الضعف وتساعد الجوع على الالتاف » .

« فان قيل : ان ذلك لا بد أن يكون تابعا لناموس آخر طبيعي ، قلنا : ان واضح الناموس هو موجد الكائنات ، فليس من المحال عليه أن يضع نواميس خاصة بخوارق العادات ، غاية ما في الأمر أننا لا نعرفها ، ولكننا نرى أثرها على يد من اختصه الله بفضله من عنده » .

« على أننا بعد الاعتقاد بأن صانع الكون قادر مختار ، يسهل علينا العلم بأنه لا يمتنع عليه أن يحدث الحادث على أي هيئة وتابعا لأي سبب اذا سبق في علمه أنه يحدثه كذلك » (٥١) .

ويقول الأستاذ محمد فريد وجدي في هذا الصدد :

« قد ثبت أن النواميس الطبيعية ممكن تخلفها عن إحداث آثارها بنواميس أخرى أرقى منها ، وقد أثبت العلم الأوربي : أن معجزات الأنبياء كلها ممكنة » (٥٢) .

ويزيد ذلك ايضا فيقول :

« لا يوجد اليوم من يستطيع أن ينكر امكان حدوث المعجزات غير جماعة الماديين . . ولو كان هؤلاء الماديون يستعرضون أمامهم ما هدى اليه ألوف من العلماء الباحثين في المباحث النفسية في مشارق الأرض ومغاربها . . لرأوا أن كل هؤلاء قد هددوا بالتجارب التي أجروها على القوى النفسية الى نواميس أرقى من النواميس الحاكمة على المادة ، وفي استطاعتها في شروط مخصوصة ابطال عمل تلك النواميس ، واحداث ظواهر جديدة خارقة للنظام الطبيعي المادي ، فأصبحت المعجزات في نظر العالم من الممكنات ، وعلم انها تابعة ، لناموس خاصة بها » .

ثم يستدرك الأستاذ محمد فريد وجدي على ذلك فيقول :

« أنا لا أقول ان ما يحصل في جلسات استحضار الارواح والتجارب النفسية . . من باب المعجزات ، ولكني أقول : ان من يتأمل في هذه الخوارق

(٥١) رسالة التوحيد ص ٦٥ - ٦٦

(٥٢) دائرة معارف وجدي في مادة (دين) ج ٤ ص ١٠٨ .

التي تتعطل معها نواميس الطبيعة ويتحقق من حدوثها ، يعرف أن هناك نواميس روحانية أرقى من النواميس المادية ، وأنه لو كانت هذه الخوارق تظهر لمجرد وجود واسطة من عامة الناس ، فكيف لا يحدث أرقى من ذلك على يد نبي مرسل ، وصل من صفاء الروح الى حيث لا تناله الهمم ولا تحوم حوله الأفكار؟ (٥٣)

وإذا ثبت ان معجزات الأنبياء خارجة عما نعرفه من ناموس الكون العام ، وأنها خاضعة لناموس إلهي آخر أرقى منه وأعلى ، وعرفنا ان ظهور المعجزات على هذا النحو غير المألوف إنما يقصد منه تأييد الأنبياء في دعوى النبوة ليحق الله الحق ويبطل الباطل ، عرفنا ان هذا هو مقتضى الحكمة وعين المصلحة .

● الشبهة الثالثة : قالوا : ان المعجزات شأنها شأن كثير من المخترعات العجيبة التي تفتقت عنها عقول بعض العلماء النابغين والعباقرة الملهمين ، فما نراه اليوم وقبل اليوم من عجائب الاختراع أمر مثير للدهشة والاستغراب ، وهو لا يقل في ذلك عن المعجزات التي ظهرت على أيدي الرسل ، وذلك مما يستقيم معه في منطق الحاجة والمعارضة بالمثل أن نقول : ان هؤلاء النابغين العباقرة أصحاب هذه المخترعات العجيبة أنبياء يوحى اليهم .
والجواب عن هذه الشبهة : أن المماثلة بين معجزات الأنبياء ومخترعات العباقرة ممنوعة ، ذلك لأن المعجزات ليست لها أسباب معروفة ولا هي مبنية على نظريات علمية مدروسة .

إن النبي تظهر على يده المعجزة وهو لا يعرف كيف وقعت ، ولا على أى ناموس من نواميس الكون نتجت ، بل ولم نسمع أن نبيا من الأنبياء نسب شيئا من ذلك لنفسه ، أو أرجعه الى نبوغ فيه ، أو رده الى معرفة منه وعلم عنده ، ومن هنا تجرد محمد ﷺ - كما تجرد غيره من الانبياء - من الحول والطول ، فقال لمن طلبوا منه معجزات بعينها : « سبحان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا » (٥٤)
وقال غيره من الانبياء لأقوامهم حين طالبوهم بالمعجزات :
« إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده ، وما كان لنا أن تأتيكم بسلطان إلا بإذن الله » (٥٥) .

(٥٣) دائرة معارف وجدى في مادة (عجز) ج ٦ ص ٢٠٢ بتصرف يسير

(٥٥) ابراهيم : ١١

(٥٤) الاسراء : ٩٣

ومن هنا - أيضاً - نعلم سر فرع موسى حينما ألقى عصاه فإذا هي ثعبان ممين ، اذ لو كان ما جاء به عن ممارسة ومدارسة لما عراه الخوف وتملكه الفزع ، حتى انه ليولى مدبراً لا يلوى على شيء ، ثم لا يسترد أمنه وطمأنينته إلا بعد أن يناديه الله عز وجل بقوله : « يا موسى أقبل ولا تخف ، إنك من الأمنين » (٥٦) .

أما المخترعات التي تفتقت ولا تزال تتفتق عنها عقول العباقرة من العلماء ، فذلك كله نتيجة دراسات علمية ، وأبحاث تجريبية ، ولم يدع عالم ولا عبقرى انه أتى بشيء معجز لا يقدر عليه غيره ، والشواهد ناطقة بأن العلم في تقدم مطرد . . . يأتي عالم بعجوبة علمية ، ويأتى عالم من بعده بما هو أعجب وأغرب . . . ولا يزال العلماء يرقون في سلم العلم حتى يأتي الأواخر بما لم تستطعه الأوائل ، لا لأنهم بلغوا حد الإعجاز ، بل لأنهم درسوا وبحثوا أكثر ممن سبقهم فكان لهم عليهم فضل في مجال العلم والاختراع .
ثم ان معجزات الأنبياء كلها ليست بالأمر الذى يمكن لبشر ما مهما أوتى من العبقرية والنبوغ أن يأتي بمثله ، لأنها من صنع الله القادر على كل شيء ، فمثلاً هل استطاع أى سحار عليم أن يقلب العصا وهى جماد أصم الى أفعى حقيقية تسعى على بطنها ، ثم تبتلع كل ما يعترضها من حبال وعصى كما فعل موسى عليه السلام ؟ .

وهل استطاع عباقرة الطب أن يبرثوا أكمها ولد أعمى ، أو يعيدوا الحياة لميت فارقت روحه جسده كما فعل عيسى عليه السلام ؟ .
وهل فى مقدور انسان - أى انسان كان - أن يضرب الحجر الأصم بعصاه فينشق عن ناقة عشراء كما وقع ذلك لصالح عليه السلام ؟ (٥٧) .
وهل قدرت قريش - وهم فرسان البلاغة وأمرأ البيان - أن يعارضوا القرآن الكريم ولو فى أقصر سورة منه ؟ . . . لقد أعجزوا - وغيرهم أعجز منهم - عن أن يأتوا بسورة من مثله ، وصدق الله العظيم « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً » (٥٨) .

(٥٦) القصص : ٣١ .

(٥٧) هذا ما ذهب اليه جمهور المفسرين فى كون الناقة آية لصالح على صدق نبوته .

(٥٨) الاسراء : ٨٨ .

إن هذا العجز للبشرية كلها من معجزات الرسل مرده الى أن المعجزات مبنية على ناموس كوني خاص بها ، علمه الله وحده ، وجهله كل من سواه .
● الشبهة الرابعة : قالوا : ان المعجزات ليست الا من قبيل السحر والشعوذة ، فإننا نرى السحرة والمشعوذين يأتون من العجائب والغرائب بمثل ما جاء به الانبياء .

والجواب عن هذه الشبهة : أن السحر والشعوذة ، واليرنجات^(٥٩) ، وغيرها من أساليب التمويه والخداع ، فنون تدرس ، ولها قواعد معروفة ، وفيها كتب مؤلفة ، يمكن لكل انسان أن يدرسها ويبرع فيها كما برع غيره وأكثر ، وكل دارس لها يعرف عن يقين أنها بعيدة كل البعد عن مشابهة المعجزات ، وقد عرفنا أنفاً أن المعجزات كلها حقائق عن الله ، لا تقوم على نظريات علمية ، ولا تتأتى لغير من خصه الله بها من الأنبياء .

وأكبر دليل على أن الدارس لفن السحر والحدائق فيه يعرف أن السحر لا يمكن أن يرقى بحال من الأحوال الى مرتبة المعجزة : ما حكاه القرآن الكريم عن سحرة فرعون من اهتمامهم وحرصهم على التغلب بسحرهم على موسى عليه السلام ، طمعاً فيما وعدهم به فرعون من جائزة ، ثم ايمانهم بموسى بعد ما بهرته المعجزة التي أبطل الله بها سحرهم رغم ما توعدهم به فرعون من عذاب ونكال ، يقول الله تعالى مصوراً لنا صراع الحق والباطل وانتصار الحق في النهاية : « . . فجمع السحرة لميقات يوم معلوم * وقيل للناس هل أنتم مجتمعون * لعلنا نتبع السحرة ان كانوا هم الغالبين * فلما جاء السحرة قالوا لفرعون أئن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين * قال نعم وانكم اذاً لمن المقربين * قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون * فألقوا حباثهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون * فألقى موسى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون * فألقى السحرة ساجدين * قالوا آمنا برب العالمين * رب موسى وهارون * قال آمنتم له قبل أن أذن لكم ، إنه لكبيركم الذي علمكم السحر فلن سوف تعلمون ، لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم أجمعين * قالوا لا ضير ، إنا إلى ربنا منقلبون * إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين »^(٦٠) .

(٥٩) اليرنجات : جمع يرنج وهو : أخذ كالسحر وليس به - انظر المعجم الوسيط

(٦٠) الشعراء : ٣٨ - ٥١

● الشبهة الخامسة : قالوا : لو كانت المعجزات دليل النبوة ، لكانت الكرامات التي تظهر على أيدي بعض الأولياء دليل نبوتهم أيضا ، لأن المعجزات والكرامات من واد واحد ، اذ الكل يجري على غير المألوف الذي اعتاده الناس ، ويقع على غير ما عرف من نواميس الكون وطبائع الأشياء .
والجواب عن هذه الشبهة : اننا لا ننكر أن يكون لبعض أولياء الله ممن صفت نفوسهم ، وسمت روحانيتهم « مشاركة في بعض أحوالهم على شيء من عالم الغيب ، ولهم مشاهد صحيحة في عالم المثال لا تنكر عليهم لتحقيق حقائقها في الواقع » (٦١) .

غير أن هناك فارقا كبيرا بين معجزات الأنبياء وكرامات الأولياء :
١ - فمعجزات الأنبياء جاءت مقرونة بدعوى النبوة ، أما كرامات الأولياء فمع كونها لا تطاول معجزات الأنبياء وانما تقاربها وتأخذ منها بشبه ، ليست مقرونة بدعوى النبوة منهم ، وانما هي مقرونة بكمال التبعية لأنبيائهم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

٢ - ومعجزات الأنبياء مبنية على الظهور والاعلان ، لأنها حجتهم على دعوى النبوة ، فلا بد من اظهارها واعلانها صريحة جلية أمام المكذبين الجاحدين حتى يسلموا لأنبيائهم ويدخلوا في دينهم .

أما كرامات الأولياء ، فمبنية على الاخفاء والاسرار ، وما يظهر منها لا يكون عن قصد للولى أو ادعاء منه للكرامة ، فكثيرا ما تظهر الكرامة على يد ولى فيشعر بها من حوله دون أن يشعر هو بها ، ولو أن وليا ادعى لنفسه الكرامة على الله حتى انه ليطلب منه الأمر الخارق للعادة فيجيب اليه ، لخرج من عداد الأولياء ، ولعد في زمرة الأفاكين الأدعياء .

٣ - والمعجزة يجوز أن تقع بجميع خوارق العادات مهما بدت هذه الخوارق غريبة ومستبعدة .

أما الكرامة ، فانها تختص ببعض الخوارق دون بعض ، فهي تتعلق - عادة - بالخوارق التي لا تبلغ حد المعجزة في الغرابة والاستبعاد (٦٢) . . . وبعد ، فما أبعد الانبياء والمرسلين عن ان يكونوا كاذبين مخادعين ، أو سحرة دجالين !! . . .

معاذ الله أن يكون أحد منهم كذلك ، فهم طراز من الخلق فريد ، بعثهم

(٦١) رسالة التوحيد ص ٨٨

(٦٢) انظر الوحي المحمدى للسيد محمد رشيد رضا ص ١٨٤ - ١٨٦

الله للعالمين هدى ورحمة ، فهدى بهم أمّا كانت سادرة في غيها ، وأعز بهم شعوباً كانت مغلوبة على أمرها ، وشفى بما جاءوا به من الحق قلوباً معتلة ، وقوم بما في أيديهم من التشريع نظماً مختلة ، ومن المنكر في البديهة - كما يقول الأستاذ الامام - أن يصدر الصحيح عن معتل، ويستقيم النظام بمختل^(٦٣) .

* * *

(٦٣) رسالة التوحيد للاستاذ الامام الشيخ محمد عبده ص ٨٨